

3- محمد المهدي: 158-169هـ/774-785م

هو أبو عبد الله محمد بن المنصور، ولد بأبذج في سنة سبع وعشرين ومائة، أمه أروى بنت عبد الله بن منصور الحميري، بويغ له بمكة المكرمة ثم وصله خبر وفاة أبيه، بعد ذلك كان اسمر طويل القامة معتدل الخلق، ونقش خاتمه ((العزة لله)) وقد سكن محمد المهدي مدينة الرصافة في حياة والده المنصور فامر ببناء جامع الرصافة وحاط حائطها وخذق خندقها، وزوجته ريطة بنت أبي العباس ولها ولدان علي وعبيد الله، وتسرى بعدة جوار منهن الخيزران، ولدت له ابنان وبنت هم موسى الهادي والرشيد والبانوقه وجارية أخرى من سبي طبرستان تدعى شكلة ولدت له ابراهيم، والبحتريية بنت الاصبهذ فولدت له المنصور والعالية وسليمة، وله أولاد من امهات اولاد اخريات هم يعقوب واسحاق والعباسية ولقد علي الخليفة أبي جعفر المنصور بابنه وخصص له خيرة مؤدبي عصره في العلم والأدب، حيث تتلمذ على يد المفضل الضبي ومال المهدي الى العلم والادب بفضل معلمه هذا و عندما تولى الخلافة اطلق من كان محبوسا بدون ذنب، الا من كانت عليه جنائية، وفرق في أهله الأموال، واستخدم حرسا من الانصار في محاولة لكسب اهل الحجاز الى جانبه، وأسكنهم في مدينة بغداد. وقد دربه أبو المنصور على الادارة وهو صغير السن، فارسله الى خراسان كما رأينا عند الحديث عن ولاية العهد، والغرض من ارساله الى خراسان، يهدف الى تدريب الشخص على الادارة واطلاعه على ما يجري في الدولة العباسية، وفي اهم جزء منها وهو خراسان، التي كانت تشكل نصف الدولة العباسية من الناحية الفعلية بوارداتها وسكانها ودور أهلها في نصره الدولة العباسية، سيما وأن معظم الجند الخراساني المتواجد في بغداد يمت بصلات النسب وقرابة من اهل خراسان هذا من جانب ومن جانب اخر فان ارساله الى خراسان يعني تدريبه على طبيعة المنطقة التي كانت تشكل اهم منطقة بكثرة ثوراتها وتمرداتها على الخلفاء العباسية فضلا عن ان السفر يعني تحمل المشاق ومهما كان السفر مريحا في ذلك الوقت فهو متعب لابن خليفة نشأ في دلال وهدوء ودعة وهذا هو هدف المنصور الاساس ان لم تكن مخطئين تعد خلافة المهدي التي استمرت زهاء عشرة اعوام، بانها فترة انتقال بين عهد الشدة والقمع الذي ساد في عهد والده المنصور، وعهد الاعتدال واللين الذي سار عليه المهدي من بعد، وقد وصف المنصور الناس من بعده ((اني تركت الناس ثلاثة اصناف، فقيرا لا يرجو الا غناك، وخائفا لا يرجو الا امناك، ومسجونا لا يرجو الا الفرج منك، فاذا وليت فاذفهم طعم الرفاهية لا تمدد لهم كل المد)) وقد استهل المهدي خلافته باسترضاء الناس، فرد الاموال التي صودرت في عهد ابيه الى اصحابها، وأمر باطلاق المسجونين السياسيين، لاسيما العلويين منهم، واعاد لهم ارزقهم وصلاتهم استيزاره ليعقوب بن داؤد على زيادة التفاهم مع

العلويين كما حاول استرضاء اهل الحجاز عندما حج في سنة 160 هـ / 777م، وكان المنصور قد عاملهم بشدة بفعل مساندتهم الحركة محمد ذو النفس الزكية فوزع عليهم امولا طائلة ، وسمح باعادة الغلال والحبوب الواردة اليهم من الشام ومصر ، بعد ان كان المنصور قد قطعها عقب حركة محمد ذو النفس الزكية ، وضم الى حرسه الخاص عددا من الجنود الحجازيين ووسع المسجد الحرام، كما وسع مسجد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة كما عمل على اكتساب ود أهل الشام الى جانب الدولة العباسية، فزار دمشق وبيت المقدس وحاول تسوية الخلافات القبلية في بادية الشام، ووزع عليهم الأموال، وكرم وفادة اولاد مسلمة بن عبد الملك. كما اقام الخليفة محمد المهدي المحطات على طريق مكة المكرمة، وزاد ما قد بناه ابو العباس وترك منازل المنصور التي بناها على حالها، كما بنى الاحواض الي تملأ من الآبار لسقاية القوافل ووضع عليها الحراس لحمايتها، واجرى على المجذومين واهل السجون حتى يمتنعوا عن السؤال ويحولوا دون انتشار الأمراض وبنى المستشفيات، واقام البريد بين مكة المكرمة واليمن، واهتم بشؤون التجارة، فأنشأ شبكة من الطرق التجارية جعلت من بغداد مركزا تجاريا عالميا، وغدت الموسيقى والشعر والحكمة والادب من مميزات هذا العصر، كما سن الخليفة محمد المهدي سنة كسوة الكعبة بكسوة جديدة كل عام، وحصن المدن وخاصة مدينة الرصافة كما ذكرنا ذلك، وعين الامناء ليوافوه باخبار الولاة، وكان يجلس للمظالم يستمع الى شكاوي الناس، فهو أول الخلفاء العباسيين الذين جلسوا للظالم وحرص على اقامة العدل بين الناس واتخذ بيتا فيه شباك تطرح فيه الظلمات ولقد أوصى الخليفة ابو جعفر المنصور ابنه محمد المهدي بجملة وصايا سار عليها في الحكم ومن بينها(اوصيك بتقوى الله ومرأقته، و عليك باكرام اهل بيتك واعظامهم، ولا سيما من استقامت طريقته وظهرت سيرته... وأجزل لهم العطاء ، ووسع عليهم في الارزاق ثم ليكن معروفك بعدهم واعلم ان رضا الناس غاية لا تدرك ، فتحبب اليهم بالاحسان جهديك، وثبت فيما يرد من امورهم عليك ، ووكل همومك بامورك، وتفقد الصغير تفقدك الكبير، وخذ اهبة الأمر قبل حلوله ، فان ثمرة التواني الاضاعة، وكن عند رأس كل امر لا عند ذنبيه، فان المستقبل لامره سابق.. وول امورك الفاضل . وانظر الاموال فانها عدة الملوك، وبها السلطان ونظام التدبير... ولا تبذلها الا في اصلاح امور السلطان والرعية. واسمع من اهل التجارب، ولا تردن ذوي الرأي... واعلم ان ذهاب السلطان يؤتى من ثلاثة أمور: قلة الحزم، وضعف العزم، وفقد صالح الاعوان، وان ثباته باربع خلال المعرفة، وحسن التخير، وامضاء الاختيار وتنكب اهل الحرص... والوزراء أضر الاعداء)) وأوصاه وصية اخرى جاء فيها : ((انظر هذه المدينة فايك ان تستبدل بها، فانها بيتك وعزك ، وقد جمعت لك فيها من الأموال ما ان انكسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات، وعطاء

الذرية، ومصالحة الثغور، فاحتفظ بها ، فانك لاتزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا... وأوصيك
باهل خراسان خيرا)) هذا فضلا عن عدد من الوصايا الاخرى. تولى الخليفة محمد المهدي
الخلافة العباسية والامور ممهدة ، والأوضاع مستقرة والحدود مضبوطة ولكن ظلت بعض
الامور تقلق الخليفة محمد المهدي، ومن بينها ظهور حركة الزندقة وقيام بعض الخوارج باعلان
ثوراتهم (انظر الفصل الرابع) فضلاً عن تجاوزات البيزنطيين على الحدود الاسلامية .

الزندقة :

هي حركة سياسية دينية، اتخذت من الدين الاسلامي شعارا لها وتسفرت به ، ثم أخذت تدعو الناس
الى التحلل من الدين الاسلامي بدعوات مختلفة بحجة التحرر والتخلص من العادات القبلية التي
أكد عليها الاسلام ، واهمها الطعن في التاريخ العربي والدين الاسلامي ومبادئ الاسلام والطعن
كثرة بالنسب العربي ، وقد ظهرت هذه الحركة وترجمها ادباء وشعراء ومفكرين ووضعوا الكتب
الجميلة والمزوقة والمكتوبة بخط جيد وملون ، ودعوا الناس إلى مبادئهم المنحرفة ، وكانت حانات
الخمير ومجالس بعض الشعراء مقرا لمثل هذه الدعوات . شمر الخليفة محمد المهدي عن ساعد
الجد في محاربة هذه الافكار الهدامة، وطلب من العلماء والادباء والمتكلمين والشعراء بالرد عليها
ومجابهتها بنفس الأسلحة التي تستخدمها ، ووضع الكتب والمقالات التي تفقد آراء امثال هذه
الدعوات ، وزج بالزندقة والمتعاونين معهم في سجن خاص اطلق عليه سجن الزنادقة ، وهذا
يعني من الناحية العملية عزل الزنادقة من بقية السجناء ، وانشأ لهم ديوان خاص بهم عرف بديوان
الزندقة ومنح صاحب هذا الديوان صلاحيات الخليفة وهي اعدام من تثبت عليه هذه التهمة . في
العاصمة ومراكز الولايات وعند استتابة الزنديق من الزندقة ، وبعد اقراره بها ، كان يؤتى له
بطائر ويطلب منه ذبحه ، فإذا ذبحه بان لصاحب الزنادقة ، براءته واطلق سراحه ، واذا رفض
ذبح الطائر اعدم ، وقد أوصى الخليفة محمد المهدي ابنه موسى الهادي ان يتتبع الزنادقة اينما كانوا
ويقتلهم لما لهم من ضرر على المجتمع. كما الف الادباء والفقهاء كتبا عديدة في الرد على الزنادقة
ومؤلفاتهم ، وهذا يدل على ان الزندقة قد انتشرت في الدولة العباسية ، وفي مناطق متعددة، ففي
احدى حملات المهدي على الدولة البيزنطية ، نجد انه احرق بعض كتب الزنادقة في حلب واعدم
من اعتقد بالزندقة وهذا يدل دلالة قاطعة ان الزندقة كانت منتشرة عند العرب ايضاً ، كما اتهم عدد
من الناس بالزندقة وأقيلوا من مناصبهم وسجنوا بسبب هذه التهمة ، التي ربما كان يلصقها
الأشخاص المعادون له ، ويتسببون في اعدامه، لأن عقوبة من يعتقد بالزندقة اذا كان مسلما الاعدام،
لما فيها من مخاطر على الدين والمجتمع الاسلامي

الخراج في عهد الخليفة محمد المهدي :

كانت الدولة الاسلامية منذ تأسيسها تسير في عملية جمع الخراج على نظام المساحة ، والتي حددت منذ ان مسح سواد العراق ، وفي خراج المساحة تكون الضريبة ثابتة على الأرض سواء زرعت ام لم تزرع ، وسواء زاد عدد الفلاحين او نقصوا او زاد الانتاج او نقص ، مما حمل الفلاح ضريبة اضافية عليه دفعها ، وذلك لنزوح عدد من الفلاحين أو موتهم او تعرض الانتاج الزراعي للنقص جراء سوء الموسم الزراعي الرديء او تعرضه لأفة زراعية ، أو عدم صلاحية الأرض للزراعة، جراء تركها وارتفاع نسبة الأملاح فيها كل هذه الأمور حدثت بالخليفة المهدي الى تبديل نظام الضريبة من النظام النقدي ، الى نظام جديد من حيث جمع الضريبة وتقديرها ، وإذا دفع الفلاح نصيبه من المحصول عيناً ، يعني هذا نقله الى مخازن الدولة ، فضلاً عن مشاكل التغيير والتقدير ووسائل الكيل التي يقدر بها المحصول ، وقد جعلت المقاسمة بالنصف أي ان الدولة تأخذ 50% والفلاح يأخذ 50% ، وتدعم الدولة الفلاح بتوفير البذور له وتؤجل عنه ديونه ايام المحن ، وتقرضه في بداية الموسم الزراعي ، تماماً كما يفعل المصرف الزراعي في الوقت الحاضر . اما خراج الشجر فقد بقي على وضعه السابق في التقدير على الأشجار مع الاخذ بنظر الاعتبار القرب والبعد عن الاسواق.

تدخل الحريم في السياسية :

لقد كان عهد المهدي بداية تدخل الحريم في السياسة ، فقد كان للمهدي زوجة تعرف بالخيزران ، وكانت جميلة جداً ، بحيث غلبت عليه وسلبته عقله وتدخلت في كل شيء ، وهذا مما يؤخذ على الخليفة محمد المهدي ، كانت الخيزران جارية تتقاذفها الايدي في الأسواق ، ثم فجأة اصبحت زوجة الخليفة ، فلم تتحمل هذا الموقف وهذا الموضع والمكانة ، وصادف ان احبها المهدي ، وكان لا يرد لها طلباً ، ووجدت ضالتها في البرامكة الذين تحالفوا معها على الحلوة والمرة ، ((وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور ، وكان يحيى البرمكي يعرض عليها ويصدر الأوامر عن رأيها)) ، فاخذت تتدخل في تعيين الولاة وعزلهم وتتدخل في تعيين مسؤولي ديوان الخراج ، وعندما يعزلهم الخليفة المهدي ، كانت تسعى لإعادتهم الى مناصبهم ، وعندما يحاسبون ويثبت النقص عليهم ، ويسجنون كانت تشفع لهم ، بهذه التصرفات فتحت ثغرة جديدة في السياسة العباسية وهي تدخل الحريم ، وقد ظلت الخيزران تتدخل في كل شيء حتى وفاة الخليفة محمد المهدي والذي توفي بقرية الرذ من ماسباذان سنة تسع وستين ومائة.